

عام النكبة

بقلم: يوسف سامي يوسف

واهم من يحسب أن الصهيونية، وهي حركة رجعية أصولية متعصبة وإرهابية، قد أنجزت شيئاً بعدما استنفرت العالم بأسره تقريباً، سوى أنها أنشأت صنفاً من أصناف الغيتو (حارة اليهود) على شطر من الساحل الشرقي للبحر المتوسط. ومن المعلوم أن الصهاينة أتوا إلى فلسطين ابتداء من سنة 1882، بذريعة مؤداها أنهم عادوا إلى أرض أجدادهم. وأنا أتحداهم أن يبرهنوا على وجود أجداد لهم في أي يوم من الأيام، كما أتحداهم أن يثبتوا ما فحواه أن دولة يهودية قد نشأت في فلسطين خلال أية حقبة من أحقاب التاريخ. وكل ما في الأمر أن جالية يهودية صغيرة قد كان لها وجود في بلادنا منذ زمن لا يعرفه أحد، كما أن أحداً لا يعرف متى نشأت الديانة اليهودية ولا أين نشأت. وللمرء أن يلاحظ ما خلاصته أنهم اختلقوا أعرب معضلة في تاريخ الجنس البشري كله. وهي معضلة لا يخلقها أحد سوى هذا الصهيوني ذي الشخصية المضطربة والشاذة في آن معاً.

وللحق أن هذا المشروع المنبثق من «وعد إلهي»، وههنا تتبدى رجعيته وأصوليته، والقائم على ابتزاز شعب من الشعوب وذبحه وتشريده من دياره، والذي يشكل منعطفاً في تاريخ العرب الحديث، ما أنجزه لهم سوى الغربيين بنفوذهم السياسي الفعال وطاقاتهم المادية الهائلة، وكذلك بعض الأنظمة العربية التي تحرس حدود الغيتو كما تحرس الكلاب قطعان الغنم. وبداهة، ما كان لهذا المشروع أن يتم قبل زمن الصناعة الحديثة أو من دونها. فيوم تفجر البخار تقرر مصير الشعب الفلسطيني، ويوم اكتشفت أمريكا صار تفجر البخار أمراً ممكن التحقيق.

لقد مني المشروع الصليبي بالإخفاق، مع ان الصليبيين فرسان صناديد، دون أدنى ريب، والدليل على ذلك أن المؤرخين العرب أقروا لهم بالبسالة والقدرة على المنازلة والميل إلى الاقتحام. أما أولئك الصهاينة فأهزل من أن يقوموا بأي فعل ذي بال. ولا يعرف المرء كيف دجنوا الشعوب الأورو - أمريكية وسخروها هي وطاقاتها المادية الهائلة لأغراضهم العدوانية. فلولا الصناعة وأدواتها الحادة، ولاسيما الأسلحة، لطردهم بالعصي والحجارة وما إلى ذلك من وسائل بدائية.

ولا يملك الحصيف أن يستبعد مقولة المؤامرة، ولا مقولة الطبقة الخائنة التي ترتبط مصالحها بالإمبريالية ارتباطاً مباشراً، حين يدرس الصراع العربي الصهيوني منذ نشأته حتى اليوم الراهن. وإنما لمؤامرة شاركت فيها معظم القوى العالمية، فضلاً عن جميع الحكومات العربية دون استثناء. فكيف يتيسر لأي مؤرخ أن يفسر إبرام اتفاقية الهدنة الأولى في حزيران، ثم اتفاقية الهدنة الثانية في تموز، مع ان تفوق الجيوش العربية على الصهاينة كان واضحاً للعيان بغير لبس؟

فلقد تبدى الخذلان جلياً حين قام عبد القادر الحسيني، أبرز القادة الميدانيين، مع رفيق له بزيارة إلى دمشق، حيث اجتمع بأبرز المسؤولين عن جيش الإنقاذ، وطلب

منهم أسلحة كمساعدة من العرب للفلسطينيين. وحين قوبل طلبه بالرفض فقد مال على رفيقه وقال له: "إذن، فلنذهب ولنستشهد في بلدنا".

ولكن الحسيني نال عشرين بندقية كمساعدة للشعب الفلسطيني. وفي طريق عودته إلى فلسطين مر بمعسكر للجيش السوري في قطنا، التي هي ضاحية من ضواحي دمشق البعيدة، وهناك أطلع نقرأ من الضباط على تلك المساعدة المتواضعة. وقد فعل ذلك ليكونوا بمثابة شهود أمام التاريخ على هذا التصير المعيب. وكان بين أولئك الضباط واحد يسمى القصري، وهو من سجل زيارة الحسيني للمعسكر، وشهد على تلك المساعدة الطفيفة الشأن، وذلك في كتاب له سوف أذكره لاحقاً في هذا المقال. وبالفعل ذهب الحسيني إلى القدس، أو إلى مدينته، ومنها إلى ضيعة تسمى القسطل مع نفر من المجاهدين ليقطع الدرب الذي يصل إلى تلك المدينة المقدسة بمدينة تل أبيب الصهيونية البالغ عدد سكانها يومئذ مائتي ألف نسمة. وهناك استشهد في الثامن من شهر نيسان. وقد استشهد بعده بمدة قصيرة قائد ميداني آخر هو الشيخ حسن سلامة، الذي يعادل الحسيني في حجمه النوعي، وذلك في قرية رأس العين القريبة من يافا (1948/5/31). ولا غلو إذا ما زعمت بأن استشهاد هذين الفارسين قبل أن ينتصف عام النكبة كان بمثابة إشارة كئيبة أشرت، في وقت مبكر، إلى هزيمة منكرة سوف يمنى بها الشعب الفلسطيني عما قريب.

لقد كان في ميسور أعدائنا، وما أكثرهم، أن يمنعوا الجيوش العربية من الدخول إلى فلسطين، وذلك بأن يصدروا لها أمراً بالتجمد في أماكنها، فلا تبارحها بتاتاً. فالجيوش العربية تنفذ أوامر تأتيها من الخارج. ولكن اعداءنا تعمدوا أن يرسلوا تلك الجنود إلى فلسطين وأن تتعرض لهزيمة مسبقة التخطيط، وذلك ابتغاء للأهداف التي سوف أذكرها عما قليل. ففي تخميني أن الذهن البشري قادر على إدراك المكتوم إذا تغلغل في المعلوم، وعلى رؤية اللامرئي إذا تمعن في المرئي.

ومما هو لصالحنا أن نتحدث عن سنة الكارثة بمنهج كاشف، لا يهدف إلى سرد تفاصيل الأحداث، بل إلى فضح الصهاينة وتبيان حقيقتهم المزورة وعجزهم عن تحصيل الغيتو الذي حصلوه من العرب لولا تلك المؤامرة العالمية التي أراها من عجائب الدنيا الثمان، بدلاً من السبع. لقد أعد كل شيء سلفاً ونفذ خطوة إثر خطوة، وما لم يدرك المؤرخ ذلك فإن ذهنه قاصر عن البلوغ إلى جوف الحقيقة. فمن المؤكد أن الجيوش العربية كانت قادرة على القذف بالصهاينة إلى البحر في الفترة الواقعة بين منتصف أيار وبين بداية الهدنة الأولى في الحادي عشر من حزيران. فلماذا أبرمت تلك الاتفاقية وأعطت الصهاينة فرصة كافية للتسلح والاحتشاد؟ وهل هو من قبيل الصدفة أن تهجم وحدة من وحدات جيش الإنقاذ، يترأسها فوزي القاوقجي نفسه، على مستوطنة مشمار هايمك، في مرج بني عامر، خلال شهر نيسان، وأن تترك طبريا وحيفا وعكا ويافا تسقط في أيدي الصهاينة حينئذ تماماً، دون أي دفاع جدي ينهض ذلك الجيش بأعبائه الجسام؟ فما كان ذلك الهجوم على تلك المستوطنة إلا ذراً للرماد في العيون.

ولقد تعمد المهيمنون على الأحداث والقوات أن يمعنوا في تزوير الصهاينة، فظهروا بمظهر الفرسان البواسل. ولهذا، راح الجيش الصهيوني الزائف يومئذ يتوغل

في الأراضي اللبنانية خلال تشرين الأول، فاحتل زهاء عشرين قرية وارتكب مجازر فظيعة في بعض تلك القرى. أما الجيش اللبناني فلاذ بالفرار. وحين انسحب العدو من جنوب لبنان فقد احتفظ بسبع قرى لبنانية وضمها إلى صيغة الغيتو على نحو نهائي. كما توغل الجيش الصهيوني ذات مرة في أرض سيناء بقيادة ضابط اسمه يغال ألون، وسار مسافة ثلاثين كيلو متراً، واصطدم اصطداماً خفيفاً بالجيش المصري في مكان اسمه أبو عجيلة. وما من هدف لهذا كله سوى أن يظهر الصهاينة بمظهر البطولة التي لا نظير لها في التاريخ، وان يملي جيشهم احترامه على العرب وأن يلقي الرعب في قلوبهم. ولكن الألباء من الغربيين والشرقيين لا حظوا منذ ذلك الحين أن الصهاينة قد نالوا الكثير مقابل ثمن زهيد.

ولهذا، ينبغي أن تشدد الدراسات المكرسة للمعضلة الصهيونية الفلسطينية على فضح زيف الصهاينة ورصد أكاذيبهم التي لا تحصى. وحين أقول انهم سادة الكذب والتزوير، فلست أبتغي أن أهينهم، وإنما أبتغي أن أصفهم بصفة هي فيهم حقاً. ولكن كبريات الأكاذيب الصهيونية الحديثة ثلاث، وهذه هي:

أولاً- أباد هتلر منهم ستة ملايين نسمة. ينبغي أن يكون المرء معتوهاً لكي يصدق هذه الفرية العجيبة.

ثانياً- هزموا سبعة جيوش عربية، مع انهم هزموا عدة مرات أمام هذه القرية الفلسطينية أو تلك.

ثالثاً- غادر الفلسطينيون ديارهم وصاروا لاجئين بسبب الحرب الناشئة بينهم وبين الجيوش العربية، وليس تحت ضغط المجازر والهجمات التي شنوها على المدن والقرى العربية العزلاء تقريباً.

بيد أن من كان من أهل الحضور لا بد له من أن يلاحظ ما فحواه أن الحكومات العربية لا تحل ولا تربط، بل تنفذ الأوامر وحسب، أو قل هي تذعن وتنصاع. ولهذا السبب، فقد أبرمت اتفاقية الهدنة بدلاً من الإجهاز على الصهاينة في أقصر مدة ممكنة. ولكي تسوغ موقفها الرضوخي، فقد راحت تتذرع بأن الاتفاقية جاءت لكي تستكمل الجيوش العربية تسليحها. فدوماً هنالك ذرائع ومسوغات وهمية لأي فعل شائن. وفي الحق أن ثلاثة من تلك الجيوش، وهي المصري والعراقي والأردني، كانت كاملة الإعداد والتسليح، وذلك لأن الإنجليز قد صاغوها قبل النكبة ببضعة عشر عاماً، بغية التصدي للألمان إذا ما وصلوا إلى نפט العراق، أو إلى قناة السويس. إنها جيوش الإنجليز، إذن. والإنجليز مع الصهاينة علناً. ولو علم الإنجليز والغربيون عامة بأنها كانت سوف تعرقل المشروع الصهيوني لما سمحوا لها بالدخول إلى فلسطين قط.

ولا مرأء في أن غاية تلك الهدنة الأولى بخاصة هي إعطاء الصهاينة فرصة كافية لتسليح جيشهم الصغير العدد والخفيف العدة في بداية الصراع، والذي أبدى عجزاً شديداً عن مواجهة الجيوش العربية الجيدة الإعداد.

ومما هو معلوم، بل مما تنص عليه المصادر الصهيونية جهراً، أن الصهاينة كانوا بغير سلاح تقريباً، أو كان تسليحهم خفيفاً جداً، يوم دخلت الجيوش العربية إلى

فلسطين، إثر انتصاف أيار من عام النكبة. ولهذا، فقد كانت الجيوش العربية شديدة القدرة على التهامهم، أو على القذف بهم إلى البحر لو خلى بينها وبينهم. ولكن العالم العربي كان، على الأرجح، سوف يتعرض للقصف بالأسلحة الاستراتيجية لو أنه فعل ذلك. وتجربة هيروشيما كانت لاتزال حية في الأذهان يومئذ. إن إضاعة الفرصة، أعني فرصة القضاء على الصهاينة قبل أن يشتد عودهم، هي الدليل الحاسم على المؤامرة والخيانة والخذلان. ولكن، على المرء ألا ينسى أن تلك المؤامرة لها ما يحتملها بالفعل، كما سنرى لاحقاً. فمما هو ناصع أن الدول العربية كانت راضخة للغربيين، أما الغربيون فقد أيدوا الصهاينة على نحو لا عقلاني، بل على نحو مذل بالشرف، حتى صار في ميسورك أن تعرّف الإنسان الأورو - أمريكي بأنه الموجود من أجل اليهود. وعندني أن هذا التأييد اللامحدود، والمنقطع النظير في التاريخ، هو المعجزة الوحيدة في التجربة البشرية كلها. فلا يعرف المؤرخون أمة خدمت سواها كما خدم الغربيون أسيادهم اليهود. والمثير للاستهجان هنا أن لا مصلحة لأولئك في خدمتهم لهؤلاء. وقد يجوز الزعم بأن إذعان الغربيين لليهود بهذا الشكل الشائن هو علامة الخطاط في التاريخ الحديث كله. كما أعتقد بأن هذا الانحطاط هو العامل الوحيد في خلاص الأمم الضعيفة من براثن أهل الغرب المحترفين للعدوان والنهب والإرهاب.

ولكن حين استؤنف القتال مع انتهاء الهدنة الأولى في التاسع من تموز، فقد ثبت على أرض الواقع أن الجيش الصهيوني ما زال أضعف من ان يواجه الجيوش العربية. ولهذا، تجددت الهدنة مرة ثانية. فلقد أخفق جيش الصهاينة في إبعاد الجيشين المصري والأردني عن تل أبيب التي وقف هذان الجيشان على مشارفها أو بالقرب منها. ولهذا، صدرت الأوامر للجيشين كليهما، ومن قيادتيهما حصاراً، بإخلاء مواقعهما والتوجه شرقاً وجنوباً بغية الابتعاد عن تلك المدينة التي اتخذت عاصمة للغيثو في مطلع أمره.

ولكن الصهاينة أحرزوا نصراً في الشمال حينما استولوا على الناصرة، عاصمة الجليل ومدينة السيد المسيح، وهي التي كانت بغير حامية تحميها باستثناء قوة صغيرة تسمى الجهاد المقدس، تابعة للحاج أمين الحسيني، وقوامها مائتا مسلح أو أقل. وبسبب ذلك، استولى الجيش الصهيوني على تلك المدينة دون قتال، لأن الصهاينة قد هاجموا بلواء جيد العدة والتسليح. وفي ذلك اليوم سقطت لوبيا، فصار خط طبريا - حيفا، مروراً بالناصر، في أيدي الصهاينة. ولم يكن جيش الإنقاذ المنتشر إلى الجنوب من عيلبون يبعد عن ذلك الخط سوى ثلاثة كيلو مترات، بل أقل، ومع ذلك، فقد لاذ بالصمت بينما راح العدو يستولي على ما يريد دون أية مقاومة.

وكان عجز الجيش الصهيوني عن مواجهة الجيوش العربية هو السبب الحقيقي لإبرام اتفاقية الهدنة الثانية التي سرى مفعولها في السادس عشر من تموز، أي بعد مضي اسبوع واحد من القتال. وما كان لتلك الاتفاقية الثانية من هدف سوى إعطاء الصهاينة فرصة كافية لتزويد جيشهم بالأسلحة الكفيلة بإنجاز شيء من التوازن مع الجيوش العربية. فعندما استؤنف القتال من جديد في شهر أيلول فقد ثبت أن أداءهم الحربي قد تحسّن كثيراً جداً، وذلك لأنهم حصلوا على طائرات حربية قادرة على الضرب في أي مكان من فلسطين كلها، كما حصلوا على دروع مجنزرة ممتازة

أسهمت أيما إسهام في الاستيلاء على بقية الجليل التي ظلت في حوزة العرب في التاسع والعشرين من تشرين الأول، يوم جرت محزرة الصفصاف.

وثمة برهان مقنع تماماً على ان الجيش الصهيوني كان أضعف من أن يواجه جيشاً عربياً واحداً، ناهيك بسبعة جيوش. إنه ذلك الصدام الذي جرى في جنين، يومي الثالث والرابع من حزيران. فقد حشد الصهاينة قوة عسكرية قوامها أربعة آلاف جندي، ودهموا تلك المدينة الصغيرة. وتصدى لهم ثلاثمائة مقاتل فلسطيني من أهلها ومن القرى المجاورة. ولكن الصهاينة المتفوقين في العدد والعدة قد دحروا القوة الفلسطينية ثم حصروها في أواسط المدينة حتى لم يبق أمامها سوى الاستسلام. ويبدو أن جنين كانت من حصة العرب وفقاً للتقسيم الذي يتبناه اليهود أنفسهم، أقصد اليهود الذين يحتلون الولايات المتحدة، وليس اليهود الذين يحتلون فلسطين. فهناك قراران للتقسيم، واحد زائف أصدرته الأمم المتحدة ذات الطابع الإمبريالي، وهو الذي لم يوضع، ولن يوضع، موضع التنفيذ في أي يوم من الأيام، وآخر حقيقي يتبناه يهود أمريكا ومن شأنه أن يمنح بعض المدن الفلسطينية شيئاً يسيراً من الاستقلال الذاتي الذي لا يسمح بخروجها من دائرة الهيمنة الصهيونية بتاتاً.

وفي سواء الحصار الذي تعرضت له جنين يومئذ فوجئ الناس بوصول كتبية عراقية مؤلفة من خمسمائة جندي. لقد أذن يهود أمركا لتلك الكتبية بالاشتباك مع الصهاينة، وذلك تنفيذاً لخطتهم في إنشاء كيان فلسطيني هزيل لا يؤثر أدنى تأثير على مستقبل الغيتو الصهيوني، بل ليس أمامه سوى أن يرضخ ويذعن على نحو معيب. وبالفعل اصطدمت تلك القوة العراقية، على صغرها، مع الصهاينة وأخذت تفنك بهم فتكاً ذريعاً، فقتلت جميع الذين حاصرتهم من الخلف، أما أولئك الذين كانوا خارج الحصار فقد تمكنوا من الفرار. واعترفت إذاعة الصهاينة بأن جيش العدو قد تكبد ألقاً ومائتي إصابة بين قتيل وجريح. وروى شهود العيان أن الجيش العراقي كدس جنث القتلى من الصهاينة في محيط جنين على هيئة تلال. وهذا برهان حاسم على أن الجندي العربي مقاتل ممتاز ومتفوق على الجندي الصهيوني. وفي قناعاتي الخاصة أنه كان وما زال وسيبقى كذلك. ولكن مسلسل المؤامرات اقتضى أن يظهر الأمر مقلوباً رأساً على عقب. إنها السياسة والاعبيها الخبيثة القدرة.

لقد ربح الجيش العراقي صدام جنين الذي يكاد يرقى إلى مستوى معركة. (جنين كلمة كنعانية معناها الجنات) ولكنه خسر ذلك الصدام الذي جرى بعد جنين بيوم أو بيومين، وذلك حين وقفت الأسلحة العراقية موقف المتفرج على سرية مشاة عراقية تتألف من مائة جندي، أو زهاء ذلك، يساندها نفر من المسلحين الفلسطينيين، وهي تدبج على أيدي العصابات الصهيونية. ولم يكن ذلك بالصدفة الخالصة، فالجيش الذي ربح صدام جنين كان قادراً على أن يربح صدام قاقون التالي لصدام جنين.

وحين تسأل عن علة ذلك الحياذ الذي أبدته الوحدات العراقية كلها، فإن الجواب سوف يكون على هذا النحو: «ماكو أوامر». أما السبب الذي حال دون صدور الأوامر فهو أن قاقون كانت من حصة اليهود بحسب قرار التقسيم. فخسر العراقيون زهاء خمسين شهيداً وخسر الفلسطينيون بضعة عشر شهيداً، وانتهى الصدام بسيطرة

الصهاينة على تلك القرية الراحمة في السهل الساحلي إلى الغرب من طول كرم، وذلك في الخامس والسادس من حزيران. وبعد سقوطها تحركت مدفعية الجيش العراقي وقصفتها حتى دمرتها. ولكن الصهاينة أخلوها فور بدء القصف ثم عادوا إليها إثر انتهائه. فلماذا لم تتحرك تلك المدافع منذ بداية الصدام؟ أما لماذا قصفت تلك الضيعة بعد ما احتلها الصهاينة وانتهى الأمر، فذاك فعل من شأنه أن يذر الرماد في العيون، أو أن يوهم الناس بأن الجيش العراقي قد بذل جهداً ملموساً لإنقاذها.

وهنا يسعدك أن تلاحظ ما فحواه أن العرب، الذين ينفذون الأوامر الآتية من خارج بلادهم، قد رفضوا قرار التقسيم على مستوى الكلام، ولكنهم قبلوا به ونفذوه على مستوى الفعل والممارسة. أما الصهاينة فقد فعلوا العكس، وذلك لأنهم قبلوا به ضمن إطار الكلام ورفضوه على مستوى الممارسة. إنهم يريدون فلسطين كلها، ولقد حصلوا عليها بالفعل. بيد أن صغر القوة العراقية التي دهمت اللواء الصهيوني في جنين هو مؤشر من شأنه أن يؤشر إلى أن الجيوش العربية كلها تأتمر بأوامر اليهود الذين يحتلون أمريكا ويحكمون العالم بواسطة هذه الأداة الحادة. فقد كشف الصهاينة أربعة آلاف جندي صاروا لقمة سائغة للجيش العراقي، وكانت إبادتهم أمراً ميسوراً لو أن قيادة ذلك الجيش التي لا حول لها ولا طول، قد حركت ألفين من جنودها. ولكن أولياء الأمور الحقيقيين لا يسمحون بإبادة ذلك اللواء.

وعندما استؤنف القتال بعد انتهاء الهدنة الأولى، صبيحة التاسع من تموز، قامت كتيبة عراقية أخرى بالهجوم على مرج بني عامر الواقع إلى الشمال من جنين وإلى الجنوب من الناصرة، وراحت في العاشر من الشهر نفسه تسترد بعض القرى العربية التي احتلها الصهاينة قبل ذلك اليوم بمدة من الزمن. كما راحت تستولي على بعض مستوطنات العدو المنتشرة في ذلك المرج الخصيب الذي اشتراه اليهود من إقطاعي أرمني لبناني الجنسية يسمى سرسك. وأخذ الصهاينة يهربون غرباً باتجاه حيفا، وظلت الكتيبة العراقية تطاردهم وتقتل الكثير منهم حتى بات النصر وشيكاً. ولكن، فجأة، أخذت الكتيبة تقسها تنسحب إلى مواقعها التي كانت تحتلها إلى جوارنا بلس دون أي سبب واضح.

ولقد حدث حادث مماثل في صدد قبل هذا الحادث الأخير بشهرين تقريباً. وخلصته أن الصهاينة راحوا يغادرون حيهيم في تلك المدينة ويرحلون باتجاه طبريا، وذلك تحت ضغط الهجوم العنيف الذي شنه عليهم المقاتلون الوطنيون وجنود جيش الإنقاذ. وفجأة انسحبت السريتان الأردنيتان اللتان كانتا تشاركان في ذلك الهجوم. وقد تم انسحابهما بناء على أوامر من غلوب باشا الانجليزي الذي كان القائد الفعلي للجيش الأردني. وعندئذ أسقط في أيدي الناس من هول المفاجأة، فأخذوا يغادرون صدد باتجاه لبنان. ولا يعرف المرء لماذا جرى ذلك الانسحاب المباغت عندما صار النصر قاب قوسين أو أدنى.

أما عكا، وهي مدينة عربية خالصة، فعاشت مأساة من نوع آخر، ولكنها مأساة تؤكد طابع المؤامرة والخيانة الذي يدمغ الصراع العربي الصهيوني منذ بدايته حتى يوم الناس هذا. فقد كان أهل تلك المدينة جميعهم من العرب، لأنه لم يكن يعيش داخل

أسوارها يهودي واحد. فشكّلوا وفداً سافر إلى بنت جبيل في جنوب لبنان حيث قابل فوزي القاوقجي، قائد جيش الإنقاذ، ورجاه أن يرسل حامية تحمي المدينة من الصهاينة. فكان أن وعد خيراً. ورجع الوفد وانتظر مجيء الحامية إلى المدينة الكنعانية التي يعني اسمها الحر، ولكن أحداً لم يأت قط. فعاد الوفد إلى القاوقجي مرة أخرى، فوعد خيراً من جديد، ولكن دون أي فعل. ثم سافر الوفد نفسه إلى بنت جبيل مرة ثالثة، فكان أن أرسل القاوقجي خمسين جندياً إلى المدينة ذات الأسوار العريقة التي صدت نابليون سنة 1799. ولكن الجنود ناموا في عكا ليلة واحدة فقط وانسحبوا عند الصباح. وعندما رآهم الناس يغادرون تلك المدينة فقد أدركوا المكنون وأخذوا ينزحون صوب الشمال، لأن الصهاينة آتون، وما من قوة تملك أن تصدهم. ولم يبق سوى شاب باسل اسمه صالح الدوخي ظل يقاتل الصهاينة وحده على أسوار عكا حتى استشهد. وقد سلف لجيش الإنقاذ أن انسحب من مشارف حيفا دون أن يخوض أيما قتال ذي بال. كما أنه قد غادر يافا بطريقة مماثلة ولكن بعدما خاض مناوشة طفيفة الشأن. (ويافا مدينة كنعانية واسمها الكنعاني يعني الجمال.) ومما هو واضح أن وظيفة جيش الإنقاذ كانت الاشتباك المؤقت مع الصهاينة ثم الانسحاب من المكان وتفريغه من القوات، ليصير لقمة سائغة للصهاينة الذين يجدون في ذلك الاشتباك العرضي مسوغاً لطرد السكان من ديارهم.

وبكل جزم أقول بأن البنية العسكرية لم يكن فيها أي خلل بتاتاً، ولكن الخلل كان في الأعلى، أقصد في البنية السياسية حصراً. والمهم هو القرار السياسي المتخذ والقاضي بإنشاء دويلة لليهود على أرض فلسطين بعد تشريد معظم سكانها، وهو القرار الذي تبنته جميع القوى الكبرى في العالم. أما القوى الشعبية التي عارضته فهي أضعف من أن تحول دون تنفيذه بأية وسيلة من الوسائل. لقد صارت السياسة فناً يسعك أن تصفه بأنه فن تدجين الشعوب أو ترويضها. ولكن الغيتو الصهيوني الذي بني على أرض معتصبة لا يساوي قلامة ظفر، ولا يستحق هذا العناء الذي بذل من أجله، ولا هذه المصائب التي حلت بالطرفين. وفضلاً عن ذلك، فإنه باهظ التكاليف، ولكن تكاليفه، أو معظمها، يدفعها العرب من قوت أبنائهم الذين يجوعون ليصبح أبناء الصهاينة. فمن المؤكد أن الجيش السوري تفوق عليهم في معظم المناوشات التي خاضها في الشطر الشمالي من وادي الأردن. ولقد انتزع منهم بالقوة بلدة الحمة المشهورة بينابيعها الكبرى الحارة، والتي كانت تابعة لفلسطين أيام الانتداب.

أما الجيش الأردني فقد أبلى بلاء حسناً في معارك اللطرون، وكذلك في صدامات القدس المتكررة كثيراً أو الشديدة الشراسة في الوقت نفسه. ففي تلك المدينة استطاع ضابط أردني شاب اسمه عبد الله التل، يقود كتيبة تضم بضع مئات من الجنود، أن يصد جميع هجمات الصهاينة عن الشطر العربي منها، كما استطاع أن يمطر الأحياء اليهودية بالجحيم نفسه، حتى بلغ عدد قتلى العدو في تلك المدينة وحدها أكثر من ألف وسبعمائة قتيل. وإنني لأقول هذا الخبر مستنداً إلى إفادة شهود العيان، قبل الاستناد إلى مذكرات ذلك الضابط نفسه، وهي التي صدرت في القاهرة زهاء سنة 1960. وهنا يجد المرء برهاناً حاسماً على أن الجندي العربي مقاتل ممتاز، وأن الجيوش العربية كانت قادرة على التهام الصهاينة لو أعطيت الضوء الأخضر لتفعل ذلك.

ومما هو في صلب الحق أن الصهاينة قد هزموا أمام الكثير من القرى العربية، ولا سيما لوبيا وسلمة وطيرة حيفا. وكانت هزيمتهم في لوبيا، يوم الثامن من حزيران، دليلاً حاسماً على أنهم لا يصلحون للقتال، وذلك لأن قوة فلسطينية خالصة قد لا تبلغ خمسمائة مسلح، استطاعت أن تهزم ألفاً وخمسمائة جندي صهيوني، وأن تكبدهم خسائر فادحة على الرغم من الفرق في التسلح والإعداد، بينما وقف جيش الإنقاذ متفرجاً في مكان لا يبعد إلا بضعة كيلو مترات عن مكان الصدام. ولكن الناس لن يصدقوا أن الصهاينة لا يصلحون للقتال، بعد ما زورتهم السياسة وأظهرتهم فرساناً صناديد لا يشق لهم غبار.

ومع أن الجيش المصري قد كان مزوداً ب ذخيرة بعضها فاسد، فإنه قد تغلب عليهم في الكثير من الصدامات التي خاضها ضدهم، ولا سيما حينما كانت تصدر له الأوامر بأن يقاتل. ولعل في الميسور التأكيد على أن حصار الفالوجة المشهور قد كان مصطنعاً، بل هو متفق عليه بين القيادتين. وربما كان الهدف منه أن يظهر الصهاينة بمظهر العظماء أو المتفوقين، حتى وإن كان الخصم بحجم الجيش المصري الذي أعده الإنجليز لمواجهة رومل إذا ما دخل إلى الأراضي المصرية. إن علينا ألا ننسى أن مصر كلها كانت في قبضة الإنجليز. ترى، لماذا لم ترسل القيادة المصرية مزيداً من الجنود إلى الفالوجة ابتغاء فك الحصار عن القوة المحاصرة؟ ومن المعلوم أن أربعة آلاف جندي مصري كانوا ينتشرون بجوار الخليل التي لا تبعد كثيراً عن الفالوجة، فلماذا لم تحركهم القيادة المصرية لتخفيف الضغط على إخوانهم العالقين داخل الطوق؟

وعندي أن حصار الفالوجة كان مقصوداً لهدف واضح وهو تمرير أنف مصر في الوحل، وذلك لأنها أقوى بلد عربي، وبهزيمتها على هذا النحو المشرف للصهاينة، والزائف في حقيقته، استطاعت قيادة العدو أن تقنع يهود العالم بأن مصر ليست خطيرة بتاتاً، وبأن تهشيم مجتمعتها هو أمر ميسور. وفي الحق أن الصهاينة كانوا قساة على المصريين، وقد فتكوا بهم أكثر مما فتكوا بأي شعب آخر من الشعوب المجاورة لفلسطين، وذلك لأن استسلام مصر، أكبر قوة عربية، سوف يشجع البلدان العربية الأخرى على الاستسلام.

وللحق أن الصهاينة لم ينتصروا على أي جيش عربي، اللهم إلا حين يهجمون بقطعة كبيرة جداً على قطعة صغيرة جداً. ومثال ذلك يوم هجم لواء بكامله على سرية أردنية كانت تتمركز في الرملة وتتألف من مائة جندي أو زهاء ذلك. وثمة أمثلة كثيرة أخرى منها محاصرة سرية أردنية ثانية في العقبة تحتوي على مائة جندي تقريباً، وكذلك على سرية مصرية في بئر السبع يساندها مائة مقاتل فلسطيني، ويوم هاجموا بثمانمائة جندي ثمانين جندياً سعودياً في حليقات، بين بئر السبع والخليل، وأبادوهم جميعاً. وثمة مثال آخر مشهور وهو ذلك الهجوم الكبير الذي شنه الصهاينة على سبعين جندياً لبنانياً كانوا يتمركزون في قرية المالكية المحاذية لحدود لبنان، فسقط جميع أفراد تلك القطعة بين شهيد وجريح.

* * *

في كتاب «النكبة» لعارف العارف، وهو كتاب نفيس صدر في بيروت وصيدا خلال الخمسينيات، ثمة تفاصيل كثيرة جداً عن سيرورة الصراع في سنة الكارثة. ولكن ذلك الكتاب القيم لا يخلو من أغلاط ليست بالطفيفة، منها مثلاً قوله في الجزء الثالث بأن جيش الإنقاذ خسر ألف إصابة في هجماته على مستوطنة الشجرة إثر انتهاء الهدنة الأولى. وفي الحق أن جميع الجنود والمقاتلين الفلسطينيين الذين هاجموا تلك المستوطنة لا يزيدون عن بضع مئات وحسب. وفي زعمي أن الشهداء والجرحى معاً، وضمنهم شهداء المتطوعين الفلسطينيين الذين شاركوا في القتال مع جيش الإنقاذ، لا يبلغون مائة، أو زهاء ذلك. (والجدير بالتنويه أن الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود، وهو يومئذ ضابط في جيش الإنقاذ، كان بين الشهداء في ذلك المكان). ولهذا، ينبغي الاقتراب من كتاب العارف بحذر حينما يتعلق الأمر بمناوشات الجليل، أو الشطر الشمالي من فلسطين جملة.

وكان للصهاينة في تلك المستوطنة القريبة من لوبيا رشاش من طراز فركز (بكسر ففتح فسكون) له صوت مميز جداً ولا زال ذلك الصوت يدوي في خيالي حتى الآن. ولكن أسلحة المدافعين كلها لم تكن السبب الذي حال دون احتلال المستوطنة، وذلك لأن السبب الفعلي هو التحصين النادر الذي حظيت به سالفاء، كما أن سلاح جيش الإنقاذ المرتجل كان خفيفاً إذا ما قورن بسلاح الجيش السوري، مثلاً. فقد استطاع هذا الجيش الأخير أن يدمر ويحتل مستوطنة مشمارهايردن (حارس الأردن) الشديدة القرب من جسر بنات يعقوب، وهو الواقع إلى الشمال من بحيرة طبريا، على الرغم من تحصينها المماثل لتحصين مستوطنة الشجرة.

وعندي أن مهاجمة المستوطنات الصهيونية المحصنة على نحو منقطع النظير، مثل الشجرة ومشمارهايردن ومشمار هاعيميك (حارس الوادي) وبيروت اسحق (آبار اسحق) القريبة من غزة والتي احتلها الجيش المصري، لم يكن سوى ذر للرماد في العيون. فمن شأن هذا الحصار أن يوهم بأن ثمة قتالاً يجري على الأرض وبأن ثمة انتصارات فعلية، مع أنها خلب وحسب. فلا ريب في أن احتلال أية مستوطنة هو أمر عسير جداً ومكلف جداً، ولا مردود له لأنه لا يؤثر على مسار الأحداث. فقد تركت الجيوش عكا وصفد وطبريا وراحت تصب حممها على بعض المستوطنات التافهة أو الثانوية جداً، والتي يكفي أن تحيط بها قوة صغيرة وتقطع الإمداد عنها لكي تموت عطشاً، أو تستسلم من تلقاء ذاتها.

فمما هو معلوم أن الجيش المصري قد انتشر في جوار تل أبيب، ولكن دون أن يقذفها ولو بقذيفة واحدة. ومع ذلك، فإنه قد استبسل بغية الاستيلاء على مستوطنة تقع في أرض غزة التي منحها التقسيم الفعلي للفلسطينيين. ولم يكن هذا الأمر من قبيل الصدفة البتة. ففي القرب من تل أبيب لا رخصة لأحد بأن يقاتل، حتى ولو ببنادق الأطفال، أما في بيروت اسحق فالقتال واجب الوجود لأنه يحرر أرضاً للعرب من هيمنة الصهاينة.

ولنعد إلى كتاب «النكبة» الذي كان من أوائل الكتب المكرسة للسنة الفاجعة، أي كان سابقاً أو طليعياً في هذا الباب.

يذكر العارف في موضع آخر من الجزء الثالث أن قطعة سورية قوامها خمسمائة جندي قد دخلت من لبنان إلى قرية الصفصاف، وقتل منها مائتا جندي. ولكن الحقيقة خلاف ذلك. ففي أواخر تشرين الأول دخل مائة جندي سوري ليلاً إلى فلسطين، بواسطة باصين اثنين. وفجأة وجدوا أنفسهم محاطين بلواء صهيوني مدرع كان ينتشر سلفاً بجوار الجيش من جهتها الغربية، ففتح عليهم النار وأبادهم عدا نقرأ يسيراً، بل قيل عدا جندياً واحداً فقط. أما مكان الصدام فتقول المصادر الصهيونية بأنه إلى جوار سعسع القريبة من الحدود اللبنانية. وأما شهود العيان فأكدوا أنه جرى على أرض الجيش حصراً، من جهتها المجاورة لأرض سعسع. ولكن تلك السرية العائرة الحظ لم تصل البتة إلى الصفصاف التي لا يفصلها عن الجيش سوى كيلو متر واحد باتجاه الجنوب. ويبدو أنها كانت في دربها إلى الصفصاف بغية إنقاذها من المجزرة المروعة التي تعرضت لها في ذلك اليوم نفسه.

ولكن كتاب «النكبة» للعارف، وهو رجل مقدسي ولد سنة 1892، يظل كنزاً نفيساً يمدنا بالمعلومات الوثيقة الصلة بالعام الكارث، حتى وإن كان لا يخلو من بعض المثالب والأغلاط. فقد كرس الجزء السادس لإحصاء الشهداء وتقديم لوائح بأسمائهم. وربما جاز الزعم بأن أرقامه ليست دقيقة في بعض الأحيان. فهو يذكر في الجزء السادس (ص 110) أن صفورية قد خسرت مائتي شهيد، ولكن هذا العدد أكبر من العدد الحقيقي بكثير. كما يقول في الجزء السادس نفسه (ص 125) أن فراضة خسرت مائة شهيد. وفي الحق أن تلك القرية الشمالية لم يجر فيها قتال ولم ترتكب مجزرة، فأين استشهد ذلك العدد من الناس؟ وكان الأجدد به أن يذكر كفر عنان المجاورة لفراضية، والتي ارتكب فيها الصهاينة مجزرة راح ضحيتها ثلاثة عشر شاباً انتقاهم الصهاينة من بين الناس وقتلوه في زيتون الرامية، مدينة الشاعر الفلسطيني سميح القاسم.

وأياً ما كان جوهر الأمر، فقد بلغ عدد الشهداء في فلسطين سنة 1948، وفقاً لإحصاءات العارف، زهاء 16.700 شهيد، منهم 13.000 فلسطيني، و1161 مصري، و511 سوري، و562 أردني، و400 عراقي و161 لبناني، و193 سوداني، و512 من جيش الإنقاذ. وهناك عدد يسير من الليبيين واليمنيين والسودانيين والمغاربة. وهذا يعني أن الشهداء العرب الآتين من وراء الحدود، سواء أكانوا جنوداً أم متطوعين، لا يبلغون أربعة آلاف شهيد. إذن، كان العالم العربي (ولا زال) جثة هامدة، كما قالت غولدا مائير ذات يوم. ولو لم يكن كذلك لاستشهد مائة ألف شاب عربي قبل أن يتمكن العدو من احتلال أرضنا المقدسة. ولو حدث ذلك لهرب الصهاينة من فلسطين كلها وتركوها لأصحابها الشرعيين، وذلك لأنهم لا يتحملون ولا يطيقون أية حرب جديدة.

لقد عاش العارف في القدس ورام الله، ولعله أن يكون خبيراً بما جرى في تلك الأرجاء وحدها. أما الكتاب الذي أصدره اللواء القصري في دمشق سنة 1962، وعنوانه «جهاد عرب فلسطين»، فهو أفضل من كتاب العارف حين يتعلق الأمر بما جرى في الجليل، وذلك لأن الرجل كان ضابطاً في سلاح المدفعية السورية، وكان مفروزاً إلى جيش الإنقاذ، كما كان يتمركز إلى الغرب من صفد، وربما في قرية

السموعية، أي عاش في الجليل الأعلى طوال مدة القتال، أو على الأرض الجبلية الواسعة، والواقعة بين صفد وعكا، والتي ظلت تحت هيمنة العرب حتى أواخر تشرين الأول من عام النكبة.

فمما لا يخفى على الألباء المتتبعين لمسيرة الحوادث بالميأومة أن العالم العربي كله ينفذ أوامر تأتيه من الخارج، ولا يملك إلا أن ينفذ تلك الأوامر طائعاً أو راضخاً رضوخ العبيد الأذلاء أمام أسيادهم المتعجرفين، وكل من خالف اغتيل، بل قد يتعرض المرء للاغتيال مع أنه أذعن و نفذ، وصار كالميت بين يدي الغاسل كما قال الأسلاف. وهذا ما جرى لأنور السادات الذي أخرج مصر من التاريخ إلى هامش الدنيا، أو إلى رصيف الحياة العالمية، بعدما كانت في قلب الزمان بالضبط.

* * *

تري، لماذا أدخلت الجيوش التي توصف بأنها عربية (مع أنها جيوش الامبريالية حقاً) إلى فلسطين إثر انتصاف أيار من عام الكارثة؟ والجدير بالذكر أن جيش الإنقاذ كان سباقاً في الدخول إلى هذا الإقليم، فوصل إلى حيفا في كانون الثاني، أي يوم كان عشرات الآلاف من جنود بريطانيا الملتزمة بوعده بلفور لا زالوا ينتشرون في فلسطين من النهر إلى البحر.

قد لا يخفى على الفطين المتأني أن ثمة جملة من الغايات وراء ذلك الفعل الإبليسي الذي لا يخطر إلا في دماغ أنجس من دماغ الشيطان، لأنه شديد القدرة على إفراز الدهاء الذي هو أخطر أصناف الذكاء. إنه دماغ «خبثاء صهيون» الذين وصفوا بأنهم «حكماء» ولكن دون وجه حق.

أما الغاية الأولى فهي إعطاء الصهاينة فرصة كافية لطرد الناس من بلدانهم، بعد إبادة الكثيرين منهم، ثم التدرع بذريعة مؤداها أنهم قد غادروا بيوتهم، لا لأنهم جزروا، بل بسبب الحرب الزائفة المزعومة، أو لأن الأمن قد اختل وصارت حياتهم في خطر، مع أنه لم تكن هنالك، على الحقيقة، أية حرب، بل صدامات ومناوشات فقط، كان أكبرها صدام جنين الأنف الذكر.

ولئن كانت الحرب هي سبب التشرد واللجوء، فلماذا لم يسمح لنا العدو بالرجوع إلى ديارنا بعد انتهاء تلك الحرب المزعومة، مع أن الأمم المتحدة قد أصدرت قراراً بوجوب إعادة اللاجئين إلى بيوتهم، وذلك في كانون الأول من عام الكارثة. وما اغتيل الكونت برنادوت، الوسيط الدولي السويدي، في شهر أيلول، إلا لأنه راح يضغط بالحاح على الأمم المتحدة كي تعيد اللاجئين إلى بيوتهم. فمما هو ناصع أتم النصوح أن الصهاينة قد طردوا الفلسطينيين من بلادهم كي يستقدموا إليها يهوداً يأتون بهم من جميع أرجاء العالم، وبخاصة من أوروبا الشرقية. فلقد أرادوا خالية من السكان لأجل هذه الغاية. وأما الغاية الثانية من إدخال الجيوش العربية إلى فلسطين. وممارسة القتال فيها، ولكن على نحو تمثيلي، فهي إيهام القيادة الصهيونية لليهود بأنهم قد حرروا «وطنهم» من العرب بقوتهم الخاصة، كما أنهم انتزعوه من جيوش جرارة قادرة على القتال، وليس من الشعب الفلسطيني الأعزل الفقير. ولكن الحقيقة غير ذلك. فلو خلي

بينهم وبين الجيوش العربية لالتهمتهم خلال أسبوع واحد فقط.

ويلوح لي أن اليهودي بحاجة ماسة إلى رفع لمعنوياته عبر إيهامه بأنه بطل صنديد، مع أنه ليس سوى رعديد استطاع أن يتسلل إلى سدة القرار في البلدان العظمى، وخاصة في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وروسيا. (حتى إيران قدمت مساعدات للصهاينة في العالم الكارثي.) ومن فوق تلك السدة، وبواسطة هذه الأدوات الحادة، أو الفعالة جداً، استطاع أن يهيمن على الأرض بأسرها. وجاءت المؤامرة لتؤكد لليهود بأنهم أبطال أشاوس استطاعوا أن يهزموا سبعة جيوش عربية مدججة بأحدث الأسلحة. ولكن مقولة «المؤامرة» ليست في صالحهم، لأن من شأنها أن تبطل الأعجوبة التي يتوهمون أنهم قد أنجزوها، وتجردهم من تلوذهم بقناعتهم المغمى عليها، والتي تتلخص في أنهم أبطال ميامين لا يشق لهم غبار، لأنهم هزموا جيوشاً جرارة ثبتت عجزها أمام بطولتهم الشمشونية.

وبواسطة هذه الهزيمة المصطنعة والمرفوضة عند العقل المحمص والذهن المتذهن، أقنع الصهاينة جميع يهود العالم، بل العالم نفسه، بأن العرب ليسوا خطيرين، ولا خوف منهم بتاتاً، وفي الميسور أن يهزموا بسهولة. ومن شأن هذه القناعة أن تشجع يهود العالم كافة على المجيء للعيش في الغيتو الصهيوني، وهو الشديدهم الحاجة إلى سكان يأتونه من خارجه، وإلا فإنه مهدد بالزوال من تلقاء ذاته. وبفضل هذا التزوير الذي لا ينطلي على أي عاقل، راح آرثر كوستلر، الكاتب الصهيوني البريطاني يتحدث عن «طرازانات عبرانية».

ولم يطرحوا هذه الأسئلة على أنفسهم: أين حاربوا؟ متى حاربوا؟ وهل خاضوا معركة واحدة جديرة بأن تسمى معركة منذ صدور قرار التقسيم سنة 1947 وحتى يوم الناس هذا؟ ولماذا قبل العرب بالهدنة الأولى، مع أن الوضع كان في صالحهم وكان في ميسورهم أن يقذفوا بالصهاينة إلى البحر؟ لقد حصلوا على أراض شاسعة واسعة مع أنهم لم يبذلوا إلا القليل جداً من الجهد الحربي اللازم. وما كان لهذا كله أن يتم إلا بسبب مؤامرة دبرتها القوى العظمى بالتوافق مع الحكومات العربية المتتالية، والتي لا وظيفة لها سوى تنفيذ الأوامر الآتية من خارج العالم العربي، وذلك لأنها لا حول لها ولا طول.

وتتلخص الغاية الثالثة من دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في أن يظهر اليهود بمظهر المعتدى عليهم، وكذلك بمظهر المدافعين عن أنفسهم، أما العرب الذين راحوا يخسرون أرضهم وديارهم ويتحولون إلى لاجئين مشردين، فقد ظهروا بمظهر المعتدين الذين اقتحموا بلداً تعترف به الأمم المتحدة، بل إن تلك المؤسسة الامبريالية هي التي وهبته شهادة الميلاد. وهكذا قلب الحق باطلاً والباطل حقاً، وثبت لكل ذي لب أن الخبث هو الذي يحكم العالم. فكان أن تعاطفت أمم الدنيا مع الصهاينة ونسيت الفلسطينيين الذين تشرذوا تحت كل سماء.

ولأن العالم محكوم بالخبث والدهاء والتمويه، فإن الحقيقة التاريخية كثيراً ما تكون مأكرة ومراوغة ولا تستسلم للعقل إلا بعد التقطن والتذهن الطويلين. وفي معظم الأحيان ينطلي التمويه الخبيث على السذج من الناس، فلا يدركون أيما فرق بين ظاهر

الشيء الزائف وبين باطنه الذي هو حقيقته وكنه أمره.

بيد أن المؤامرة نفسها تحتاج إلى ما يعللها. فلماذا تأمرت الحكومات العربية على بلدانها؟ ولماذا خذلت فلسطين مرتين بدلاً من مرة واحدة؟ وكان الخذلان الثاني، سنة 1967، أخزى من الأول، وذلك لأنه أفضى إلى استيلاء الصهاينة على القدس، المدينة الكنعانية الموعلة في القدم، كما تصرح التوراة نفسها. والعجيب أن سقوط تلك المدينة المقدسة عند جميع المسلمين قد تم دون أي دفاع بتاتاً.

إن جملة من الوقائع الخارجية أو العينية ينبغي أن تؤخذ بالحسبان لدى دراسة المرء لعام النكبة ونشوء الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين:

أولاً- لم تكن هناك أية قوى عالمية مستعدة لدعم الجيوش العربية ومدّها بالسلاح والعتاد الحربي. فقد انحازت القوى الكبرى كلها للصهاينة دون استثناء. ولعل في الميسور الذهاب إلى أن فيتنام قد انتصرت على أمريكا، ليس بفضل بطولة الفيتناميين وحدها، بل كذلك بفضل الدعم الكافي الذي قدمته كل من روسيا والصين على السواء.

ثانياً - لو انتصرت الجيوش العربية على الصهاينة لهبّت لنصرتهم معظم جيوش الأرض، ولجأ الجيش الروسي قبل جميع جيوش الغربيين. ولا يجوز للمرء أن يستبعد مجيء الجيشين التركي والإيراني معاً.

ثالثاً - كانت جيوش الإنجليز، وهم الأشدّ تحمساً للصهيونية، تنتشر بكثافة في مصر والأردن والعراق، وكان مائة ألف جندي بريطاني يرابطون على ضفتي قناة السويس، أي على مرمى حجر من تخوم فلسطين. وبداهة، كانت الجيوش البريطانية كلها على أتم استعداد للتدخل في فلسطين لصالح الصهيونية.

رابعاً- كان في ميسور الغربيين أن يقدموا للصهاينة أشدّ الأسلحة فاعلية وقدرة على الفتك. ولو طالت الحرب واستعرت - وهذا أمر لا يسمح به الغربيون - لنفذت ذخيرة الجيوش العربية وانسحبت من فلسطين على الرغم منها. فمما هو مؤكد أن بريطانيا أوقفت شحن الأسلحة والذخائر إلى الجيوش العربية ذات التسليح البريطاني.

وما من ريب في أن الغربيين لا يسمحون باحتدام الحرب واشتداد أوارها، وذلك لأن الصهاينة المدنيين، في هذه الحالة، كانوا سوف يهربون من فلسطين، حتى لو انتصر جيشهم على الجيوش العربية. ولهذا السبب حصراً، يسعك القول بأن الحرب ممنوعة الحدوث في منطقتنا منعاً باتاً. أما ما هو مسموح به فعلاً فهو المناوشات الصغيرة والصدمات الطفيفة الشأن، والتي لا تعرقل بلوغ الصهاينة إلى هدفهم النهائي الذي يتلخص في الاستيلاء على فلسطين كاملة غير منقوصة.

وثمة غاية شديدة الأهمية يبتغيها الصهاينة من وراء هذه المناوشات، وهي أن يقنعوا أنفسهم، فضلاً عن بقية البشر، بأنهم قد حرروا «أرض أجدادهم» بدمائهم وجهودهم وبطولاتهم المنقطعة النظير، وبأن «وطنهم» الذي جدوه - حسب زعمهم - قد ولد في العسر والمشقة ونتيجة لتضحيات جسام، وليس بواسطة تلك الأداة الحادة التي تسمى الغربيين. أما هزموا سبعة جيوش عربية؟ وعندي أن هذا هو خداع الذات بالضبط. ولكن اليهودي المكروه والمحتقر في كل مكان تقريباً كان بحاجة ماسة إلى

مثل هذا الخداع الذي قد يوهمه بأنه كائن بشري سوي، بل متفوق مثل شمشون الذي قتل ألف فلسطيني بفك حمار، كما تزعم التوراة.

* * *

إذن، كانت الكارثة حتمية تاريخية، وكان نشوء الغيتو الصهيوني على أرض الوطن السليب حدثاً لا مناص منه البتة، وذلك لأنه قرار اتخذته السياق العام للتاريخ البشري بأسره، وما من قوة على الأرض كان في ميسورها أن تحول دون حدوثه الفعلي. إنه اختلال التوازن بين العرب والغربيين. وإنه لاختلال جسيم جداً، فقد صار العرب هم الصفر، أو اللاشيء حصراً، حين تقارنهم بخصوصهم المزمنين، أعني الغربيين. ولهذا السبب تمكن الصهاينة من «تصحيح التاريخ»، وفقاً لعبارتهم المشهورة. ولو كانت فيهم ذرة من مروءة أو شرف لما طردوا الفلسطينين من ديارهم، أو لما أقدموا على ذلك الفعل الخسيس.

وفي تخميني أن مجمل هذه الحقائق الناصعة من شأنه أن يقدم تفسيراً للمؤامرة قادراً على إقناع أكثر الأذهان ميلاً إلى السبر والتمحيص. ولا يخفى على الألباء أن الصهاينة ما كان لهم أن يحرزوا هذا النصر المذهل، ولكن الزائف، لولا الغربيون الذين يتأربنون أمام إرادة اليهود، وكذلك لولا صناعتهم وطاقاتهم المادية شبه الخرافية. أجل، ما كان لهم أن ينتصروا إلا في زمن متليف أحال الإنسان إلى شيء بين الأشياء. وما من سبب أو دافع قد جاء بهم إلى فلسطين سوى الطمع بنفط العرب الذي يلهطون منه حصة كبيرة جداً. وهذا يعني أن العرب قد دفعوا الجزية لليهود «عن يدوهم صاغرون»، وذلك على النقيض مما كان مألوفاً في الأزمنة الغابرة.

فما قد يدركه أهل الفطنة بسهولة أن الغيتو الصهيوني يحيا عالة على سواه من أمم الأرض، أو على شطر مما تبتزه الامبريالية من ثروات البلدان الضعيفة المنهوبة. وهذا يعني أنه كيان طفيلي إلى حد بعيد. وفي زعمي أنه حين يجف نفط العرب، الذي لا بد له من النضوب ذات يوم، على شدة غزارته وعرامه، فإن دويلة الصهاينة المبنية على مبدأ النهب والإرهاب واحتراف الجريمة، دون أن تطالها القوانين الدولية، سوف تجف معه حتماً، وفضلاً عن ذلك، فإنني أتوقع لهم مجزرة مروءة لا مثيل لها في التاريخ كله.

ولكنها سوف لن تحدث إلا في المستقبل البعيد جداً. ولعلمهم لا يبحثون عن أي شيء إلا عمن يجرهم ويفتك بهم. فالنفس المضطربة الشاذة، أو نفس الصهيوني، قد تضمّر مثل هذه النزعة في أعماقها المكتومة. (من المحال أن ينشأ علم حقيقي بالنفس البشرية، وكل ما هنالك من هذا القبيل لا يزيد عن أنه اجتهادات وحدوس، بل ظنون.)

أما السلام الآتي، ولكن ليس قبل بضعة عشر حولاً، فلن يكون إلا زائفاً حتماً، وذلك لأن الصهاينة قد طردونا من ديارنا وفروا أكبادنا، وأحالونا نحن وأولادنا وأحفادنا إلى لاجئين. وبتلك الأفعال الإجرامية برهنت الصهيونية على أنها أسوأ من النازية المتهمة بإبادة ستة ملايين يهودي دون تقديم أي دليل من شأنه أن يدل على صحة هذا الإدعاء. ولقد تمت الفاجعة بشكل لا عقلائي تأنف الأبالسنة من القيام بأي فعل من فصيلته

الجنونية. فما من سلام غير خلب بعد هذا الحادث الفريد في التاريخ كله. ولعله أن يكون من ذلك الصنف الذي سماه الجاهليون «هدنة على دخن».

أقول هذا مع قناعتي التامة بأن العرب الشعبيين قد يئسوا من الصراع وسئموا، وصاروا على أتم استعداد للاستسلام، حتى ولو بشروط مجحفة جداً، أو مقابل أذن الجمل الذي لم تتل منظمة التحرير سواء مقابل التنازل عن فلسطين في أواسط سنة 1993. فلقد تعرضت الجماهير الشعبية في البلدان العربية لترويض طويل دام عشرات السنين. وإنه لترويض مارسه قوى داخلية وخارجية في آن واحد. فقد يجوز الذهاب إلى أن العرب قد أصابهم الشلل أو أدمنوا الهزيمة واستمر أوهاء، حتى لم يعد من المبالغة أن يقال بأنهم قد «كُتبت عليهم الذلة والمسكنة» بدلاً من اليهود، كما هو مذكور في القرآن الكريم.

أما الحقيقة الصاعقة فهي أن العالم قد اصطف إلى جانب القاتل ضد القتل. ويصح هذا المذهب على القوى العظمى بالدرجة الأولى. فما مصلحة روسيا في الاعتراف بشرعية الغيتو الصهيوني إثر إعلانه؟ وما مصلحة اليابان وتركيا وإيران؟ وليت أحداً يبين للناس مصلحة أوروبا وأمريكا في دعمهما اللامحدود للغيتو الصهيوني. يقيناً، إنه لمن العار والشنار على الجنس البشري بأسره أن يتعرض الشعب الفلسطيني لهذا العسف كله، أو لهذا الذبح اليومي، على أيدي كائنات من تلك الملة التي وصفها النازيون بأنها «لا بطولية»، بينما يقف العالم كله مكتوف الأيدي، متقرباً، لا مبالياً إلى حد البلادة البقرية. وفي هذا برهان مفحم على أن العقل لا يحكم العالم، بل اللاعقل، أو اللؤم حصراً، وذلك خلافاً لمزاعم الفلسفة العقلانية أو الهيجلية.

وعلى أية حال، فإن بودي قبل النهاية، أن أرسخ حقيقتين هما في لباب الأمر. أما الأولى فهي هذه: بينما كان الصهاينة يوهمون الدنيا برمتها في عام النكبة بأنهم يدافعون عن أنفسهم ضد سبعة جيوش عربية اقتحمت «أرض أجدادهم» التي قدمتها لهم الأمم المتحدة منحة مجانية، فقد راحوا يذبحون الشعب الفلسطيني من الوريد إلى الوريد. وههنا بالضبط يتكشف الهدف الأول من إدخال الجيوش العربية إلى فلسطين يومئذ. وعندي أن هذه الحقيقة التي تحتل مكان الصدارة بين جميع الحقائق الإجرائية هي الأجدر بانتباه المؤرخ حين يبحث في النزاع العربي الصهيوني بعامة، أو في عام النكبة بخاصة. فالقتال بين الصهاينة والجيوش العربية هو الستار الذي غطى على المذبحة والفجيرة، وكذلك على الطرد والتشريد في الوقت نفسه. (أشعر بأن ثمة مهمازاً في داخل روعي يهمزها ويحثها على كتابة هذا المقال ابتغاء التأكيد على هذه الحقيقة الشديدة الأهمية.)

فمما يعرفه الجميع أن الصهاينة قد ارتكبوا جملة من المجازر اللثيمة في العام الكارث، وكان أبرزها في عين الزيتون والصفصاف وكفر عنان في الشمال، وفي الطنطورة بالقرب من حيفا، وفي دير ياسين واللد والدوايمة في أواسط فلسطين. كما ارتكبوا مجزرة مروعة بالطيران في غزة أثناء الخريف. ونفذت عصاة الأروغون التي كان يقودها الإرهابي مناحيم بيغن، بطل دير ياسين، مذبحة مروعة في حي المنشية التابع ليافا، حيث أبادت الصغار قبل الكبار، وذلك يوم احتلت تلك المدينة في أواخر

شهر نيسان. ولقد تحدث الإرهابي بن غوريون، أول رئيس للغيثو الصهيوني، وهو من أحسبه يجهل البسمة جهلاً مطبقاً، تحدث عن مجازر في شمال البلاد وفي جنوبها. ثم إن مؤرخاً صهيونياً قد اكتشف، منذ زمن ليس ببعيد، تلك المقبرة الجماعية التي دفن فيها الصهاينة شهداء مجزرة الطنطورة البالغ عددهم مائتين وسبعين.

ولا يخفى حتى على الأطفال أن الهدف الأول من تلك المجازر الهائلة، التي كشفت اللؤم على حقيقته هو طرد الفلسطينيين من ديارهم، وذلك ابتغاء تفرغ البلاد من السكان لتستقبل يهوداً كانوا سوف يأتون من جميع أرجاء العالم. ومما هو في الصميم من اللاعقلانية التي يتصف بها التاريخ بخاصة والوجود بعامة، أننا نحن الفلسطينيين، أو شعب الجرة والخابية والدالية والزيتونة، قد ابتلينا باليهود، أي بأقذر الكائنات على التسلسل في الظلام. يقيناً، إنهم يجهلون المروءة والشرف جهلاً لا حدود له بتاتاً، ولولا ذلك لما أنزلوا بنا تلك الكارثة النادرة في تاريخ الجنس البشري كله.

وأما الحقيقة الثانية فمؤداها أن العالم العربي لم يحارب منذ صدور قرار التقسيم وحتى يوم الناس هذا. وكل ما في الأمر أن الصهاينة قد مثلوا مع العرب سلسلة من المناوشات الصغيرة وحسب. ولهذا، فإن مما هو صادق في ذهني تمام الصدق أنهم كسبوا وطناً دون أن يخوضوا أية حرب جديرة بأن تسمى حرباً بالمعنى الدقيق للكلمة. ومما يؤكد صحة هذه الحقيقة أنهم حصلوا على ذلك الصقع الذي يسمى المثلث دون قتال بتاتاً. فمما هو معلوم أنه قد وهب لهم خلال المفاوضات التي جرت في رودس سنة 1949، حيث نالوا نصف مليون دنم من الأرض الخصيبة تنتشر عليها اثنتان وثلاثون قرية عربية، اقتطعت من قضاء جنين وقضاء طولكرم. وقد وهبت لهم تلك الهبة النفيسة عندما كان الجيش العراقي لا يزال يسيطر عليها ويتحداهم أن يقتربوا منها. وتتلخص وجهة نظرهم بأن الأرض التي حصلوها بالحرب الزائفة كانت شديدة الضيق إلى الجنوب من حيفا فأرادوا توسيعها. وكان يكفي أن يطلبوا لكي يأخذوا. فالغرب يدعمهم والعرب أسخياء. فلو أراد اليهود لبن العصفور لجيء به إليهم في كؤوس من ذهب. وهذه حقيقة من شأنها أن تؤكد الوجه اللاعقلاني لما يجري في هذا العالم المنكوب بالندالة واللؤم.

وبودي أن أؤكد مرة ثانية على أن الحرب الحقيقية الطاحنة ممنوعة في منطقتنا، وذلك لأن المدنيين الصهاينة سوف يغادرون الغيتو إلى أماكن أخرى، حتى لو انتصر جيشهم على العرب، وذلك إذا ما نشبت حرب حقيقية بين الطرفين. وفي هذا إجهاض للمشروع الصهيوني بمجمله.

نعم، إن العالم العربي لم يقاتل على الأصالة منذ سقوط الدولة المملوكية سنة 1517، ذلك السقوط الذي افضى إلى خروج البلدان العربية كلها من التاريخ، فصار مصيرها يتقرر من خارجها، وظل كذلك حتى اليوم الراهن. إن آخر معركة خاضها العالم العربي هي معركة الريدانية التي جرت بجوار القاهرة، وهي التي ربحتها السلطان العثماني سليم الأول، فأنهى بذلك استقلال العرب. ولكن حين يقاتل العالم العربي في المستقبل (البعيد؟)، وذلك بعد تحريره من القوى التي تشكمه من الداخل، فإن الغيتو الصهيوني الشاذ في كل شيء، سوف لن يتحمل أكثر من بضع ضربات

صغيرة قد تزيله من الوجود، أو تجعله ضامراً مثل حبة السمسم. فمن المؤكد أنه لولا العدو الداخلي، أو ما اعتدت على تسميته باسم الطبقة الخائنة، لما تمكن العدو الخارجي من أن يهزمننا على هذا النحو المزري، أو من أن يهيمن على مصيرنا وعلى ثرواتنا وينهبها بهذا الشكل الفظيع.

أما السلاح الذي يعتمد عليه الصهاينة إلى حد أعماهم عن أهم الحقائق التي تخص هو يتهم المصطنعة، بل الشاذة والطفيلية في آن معاً، فهو ليس كل شيء في مسرحية التاريخ الدامية. إنهم سوف يستمرون في الوجود ما داموا يمارسون القتل والإرهاب بهذا السلاح الذي لا نظير له في معظم دول الأرض. ومن شأن هذه الحقيقة أن تذكر المرء بواحد من أمثالنا الشعبية هذا نصه: «حين يكون السلاح في يد النذل فإنه يجرح.»

ولكن يوم يجيء الانحطاط، وهو حتمية تاريخية أو قدر علمي لم ينج منه أي شعب من شعوب الدنيا، فإن السلاح سوف يصير بغير نفع أو جداء بتاتاً. فلقد كانت الدولة الآشورية واحدة من أعتى القوى العسكرية في التاريخ القديم، ولكن الناس أُصيبوا بالذهول عندما شاهدوا الكتائب الآشورية، وهي تتفكك الواحدة إثر الأخرى، وعلى نحو مباغت، مع أنها مسلحة بأحسن الأسلحة في زمانها، وذلك تحت ضربات البابليين والميديين القاصمة للظهر. ولهذا، كتب توينبي في «دراسة التاريخ»: «وسقطت آشور جثة مدججة بسلاحها.» وقد يكون مصير الغيتو الصهيوني مثل مصير آشور، سواء بسواء. فالسلاح ليس كل شيء، جزماً. ومما يلوح لي أن «خبثاء صهيون» الذين أنجزوا المشروع الصهيوني ليسوا مطلعين على التاريخ، أو هم لا يتعظون بعظاته. فلقد اقتحم العرب إسبانيا وانتصروا على أهلها نصراً حاسماً أزال كل مقاومة محلية. ولكنهم في الطور الثاني صاروا يذبحون كالأغنام. وحسم الصراع بعد ثمانية قرون لصالح الإسبان. كما اقتحم الأتراك أوروبا وأحرزوا فيها من الانتصارات ما لا يبذل. ولكنهم في طور لاحق تعرضوا لمذابح قد تكون بغير نظير في التاريخ كله. ولا زال الأتراك، أو مخلفاتهم من المسلمين في أوروبا، يذبحون حتى الجيل الراهن.

ولعل هذا المصير نفسه أن يكون مصير الصهاينة في فلسطين. ولدى التأمل النزيه، فإن الغيتو الصهيوني سوف يتبدى شاذاً، أو غير منطقي، بل لا عقل له. فسكانه أشتات لا يجمعها سوى رباط واهٍ جداً هو التوراة. (الرباط الحقيقي الذي يربطهم ويوحدهم جميعاً هو نهمهم وطمعهم بنفط العرب.) ولقد جاؤوا من ثلاثة وثمانين إقليماً مبعثرة على سطح الكرة الأرضية كلها. وهذا يعني أنهم خليط غير متجانس يحمل في بنيته عوامل تفككه وانقسامه، وذلك بسبب صيغته الثقافية الشبيهة بكشكول المتسولين. ولا ريب في أنهم يكرهون بعضهم بعضاً، وذلك لأنهم متباينون، بل متناقضون أو متضادون، والأوروبيون منهم، أو البيض، يشكلون الفئة السائدة في مجتمعهم.

ولا يتوقف شذوذ الغيتو الصهيوني عند هذه الظاهرة وحدها، أقصد ظاهرة الافتقار إلى الوحدة والتجانس بسبب تعدد المصادر التي جاؤوا منها، بل هو يتعدى ذلك إلى مفارقة مريعة مؤداها أنهم تركوا أنهار أوروبا العزيرة، ولا سيما الدانوب والبولغا والدنيبر والدنيستر، وأتوا إلى قلب العالم العربي الذي يسمونه «الشرق الأوسط»

ليزاحموا أناسه على مصادر عطشهم.

* * *

وفي صلب الحق أن هذا الصنف من الكائنات شاذا إلى حد يثير استهجان البلهاء قبل العقلاء. فهم يعيشون على التطفل والابتزاز في أن معاً. فلقد ابتزوا الألمان كثيراً بذريعة مؤداها أن هتلر قتل منهم ستة ملايين نسمة. (لاحظ الستة ههنا.) وهل هنالك من يجهل أنهم سرقوا الشطر الأعظم من أرض فلسطين متذرعين بأنها «أرض أجدادهم»؟ (دوماً هنالك ذرائع.) وهم معتادون على السرقة والانتحال. فقد انتحلوا اللغة الكنعانية وسموها العبرانية بغير وجه حق. وتشهد على ذلك توراتهم نفسها، وعلى نحو صريح. (أشعيا: 18:19). كما انتحلوا النجمة السداسية من بابل، العاصمة الحضارية للعالم القديم كله، وهي التي وصفها أحد المؤرخين الإغريق بأنها «أعظم مدينة تشرق عليها الشمس». فمما هو مؤكد أن بابل كانت المعقل الأكبر لعلم الفلك طوال قرون كثيرة سبقت اضمحلالها على أيدي ورثة الاسكندر المكدوني في القرن الثالث قبل الميلاد.

وقدست بابل الستة لأنها أول الأرقام الكاملة، وكذلك لأنها تنطوي على إشارة إلى الجهات الست التي هي جهات الكون. وعندما اكتشفت الرياضيات البابلية في ثلاثينات القرن العشرين، فقد ثبت أنها أكمل علم بالجبر في العالم القديم كله. فمن الثابت أن بابل حلت معادلة جبرية من الدرجة الرابعة. ولهذا، فإنه حين يكون هنالك نجمة، وحين تكون سداسية، فهذا يعني أنك أمام إنجاز بابلي، أو أمام إنجاز اتخذته تلك المدينة العظيمة رمزاً للكمال.

وتحتاج رايتهم المؤلفة من اللونين الأبيض والأزرق إلى تأمل وتفطن، وذلك ابتغاء معرفة المصدر الذي انتحلوها منه. فهم ذوو شخصية ملفقة وليس لهم شيء مما يحوزون. إنهم العصابة التي استحالت إلى طائفة. فمن المؤكد أن اللون الأزرق السماوي هو اللون الأثير في بابل التي كان علم الفلك، أو علم السماء المرئية ذات اللون الأزرق الفاتح، وفقاً عليها وحدها قبل أن ينتشر في الأرض.

ولا يراودني أدني ريب في أنهم انتحلوا الشمعدان السباعي من بابل أيضاً. فهو رمز للكواكب السبعة الكبرى التي عني بها الفلك البابلي أكثر من سواها، وهي الشمس والقمر والمريخ والزهرة وزحل والمشتري ونجمة القطب. ومن المؤكد أن السبعة كانت مقدسة في العراق بأسره، وما ذاك إلا لأن الكواكب الكبرى عددها سبعة. ومن المفارقات أن يكون لأولئك المزورين، أو رعاة الأغنام الأميين، شمعدان وأن تكون بابل، مدينة العلم والنور، بغير شمعدان. وحتى كلمة «هيكل» قد جاؤوا بها من العراق، فهي في الأصل كلمة سومرية تتألف من كلمتين، وهما «إي» و «غال» ومعناها البيت الكبير. وقلة هم الذين يعلمون أن كلمة «تورا» هي كلمة فرعونية، أو مصرية، ومعناها «التراث». ولدى التمحيص سوف يتكشف أنهم مدينون بالكثير لمصر وبابل معاً.

كما انتحلوا السبت من بابل أيضاً. فقد كان البابليون يعدون اليوم الأول والثاني

والثامن والسادس عشر والرابع والعشرين من كل شهر أياماً مقدسة، أي سبوتاً. إن بابل التي اخترعت الساعة، أو ميقات الزمن، وقسمتها إلى اثنتي عشرة ساعة، أي ضعف الستة، لا بد لها من أن تكون هي التي اخترعت الأسبوع، أو اتخذت يوم عطلة بعد كل ستة أيام، وبذلك تكون قد مجدت الستة والسبعة معاً، وهما الرقمان الأثيران لديها. ففي مدينة عظمى مثل بابل، حيث العمل مرهق جداً، يحتاج المرء إلى يوم راحة كل بضعة أيام، أو إلى يوم يكرسه للعبادة والمعبد. ثم إن هذا الشأن منطقي في أية مدينة كبرى من مدن العالم القديم والحديث. أما رعاة الغنم فما حاجتهم إلى عطلة أسبوعية؟ ومن الغرائب أن ول ديورنت أقر في «قصة الحضارة» بأنهم رعاة أغنام، ومع ذلك فقد وضعهم فوق البابليين، كما جعلهم أنداداً للإغريق والمصريين. فما شاء الله كان!

ولقد انتحلوا تلك الطريقة الصوفية التي يسمونها الكبالا من بابل أيضاً. فلا ريب عندي أن كل صوفية متطورة في الدنيا، أصلها الأول من بابل، أو من مصر الفرعونية حصراً. ولا غلو إذا ما زعم المرء بأن ديانتهم أصلها من مصر الفرعونية، فالأخاناتونية واضحة عليها وضوح الشمس في راد الضحى.

ولا يتسع المجال هنا للكشف عن جميع المسروقات التي اختلسوها من بابل، فهذا موضوع يحتاج إلى بحث خاص قائم بذاته. ولا غرابة أن يتأثروا ببابل إلى هذا الحد المتطرف فهي مدينة عملاقة على نحو منقطع النظير في الأزمنة الغابرة لقد كان طول سورها الذي اكتشف أساسه ثمانية وثمانين كيلو متراً، وهذا شيء عملاق ونادر في الأزمنة الغابرة كلها، أو في العصور السابقة على عصر الكهرباء. ولكن جميع الناس يجب أن تعلم ما فحواه أنهم سرقوا بابل وشتموها، وسرقوا مصر وشتموها، وسرقوا كنعان وشتموها. وهذا يعني أنهم كمن «شرب من بئر ورمى فيه حجراً»، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية.

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإنهم أجانب في هذا الجزء من العالم، الأمر الذي سوف يحتم أن يكونوا أغراباً منبوذين ومكروهين. كما أن منطقتنا سوف تظل ترفضهم وتمقتهم بسبب الإرهاب الذي مارسوه فيها، ولا سيما لأنهم طردوا الفلسطينيين من ديارهم. فمثل ذلك الفعل اللئيم لا صلح بعده بتاتاً، وذلك وفقاً لطبع الأشياء. أجل، إنهم سوف يظنون مرفوضين حتى ياذن التاريخ بزوال هذا الكيان المصطنع، الشبيه بالغيثو، والموغل في الخروج على أسس العقل والرشاد.

ولقد فانتت الصهاينة، أو «بلهاء صهيون» حقيقة جوهرية أراها في الأوليات: ما من شيء حي إلا وينقلب إلى ضده. نعم، ينقلب الشباب الفولاذي إلى شيخوخة نابحة، والصيف الكاوي إلى خريف لطيف، والشتاء الزمهرير إلى ربيع دافئ فينان. فالدنيا لا يدوم لها حال بتاتاً، كما أن دولاب الدهر يدور ويدور، ولا يمل من الدوران ولا يكل. ولسوء حظ الصهاينة أن الزمن مفتوح على الأبد، وأن إغلاقه متعذر تمام التعذر.